مفهوم السَّداد في القرآن الكريم

جميلة بلعودة*

وليد فكري فارس**

الملخص

تتناول هذه الدراسة قراءة تحليلية لمفهوم السَّداد في القرآن الكريم، بوصفه من المفاهيم التي تؤدي دوراً فاعلاً في بناء منظومة الفكر، وتوجيه السلوك، ومن ثم، تأطير مسارات الحركة الاستخلافية، بوصفها حركة عبادية، قصدية، مؤطرة بمبدأ السَّداد على مستوى حركة الأقوال (مردود الكلمات)، وبمبدأ الصلاح على مستوى حركة الأفعال (مردود السلوك)، ورصد هذا المفهوم في الخطاب القرآني، بقصد معرفة نموذج السَّداد الكوني، الذي انتقاه الله بديلاً في حركة الحياة، وسماته المميزة، وانتهي الباحثان إلى أن مفهوم السداد والصواب وإنْ جاء في القرآن وصفاً للقول، إلّا أن القرآن ربط مفهوم السَّداد بالخطاب البشري، والصواب بالخطاب الملائكي. ووسّع الرسول ﷺ دائرة هذا المفهوم للدلالة على القول والفعل معاً؛ بل الأبلغ من ذلك أنه رسم مستويات لهذا الخطاب السّديد (السّداد، المقاربة، القصد). وقدّم لنا القرآن الكريم تفسيراً سياقياً لنموذج الإنسان السّديد، فهو مؤمن المنطلق، كوني الوجهة، سليم الفطرة، سديد المنطق، صالح العمل، مسؤول عن منجزات الخلافة وواجب الائتمان، مؤيد بالعلم، ومبرأ من الظلم والجهل، ومسدَّد نحو الأبدية.

الكلمات المفتاحية: السّداد، المفهوم القرآني، المنظومة الأخلاقية، الأخلاق في القرآن، السياق.

---

* دكتوراه في القرآن والسنة، الجامعة الإسلامية بماليزيا 2019م، أستاذة في العلوم الإسلامية/ الجزائر. البريد الإلكتروني: mmarwaa589@gmail.com

** دكتوراه في الأنظمة اللاخطية، بفيرجينيا 2003م، مدير مركز شؤون العالم الإسلامي الجامعة الإسلامية بماليزيا. البريد الإلكتروني: waleed@iium.edu.my

تم تسلم البحث بتاريخ 2019/6/17م، وقُبل للنشر بتاريخ 2020/4/29م.

بلعودة، جميلة، فارس، وليد فكري (2020). **مفهوم السداد في القرآن الكريم**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 25 العدد 100، 111-146. DOI:10.35632/ citj.v25i100.5067

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي2020 ©

مقدمة:

يعد السَّداد من المفاهيم البنائية في القرآن. ويؤدي دوراً مهماً في ضبط الحركة الإنسانية، وترشيد مساراتها، نظراً للمساحة التي يشغلها في بنية التفكير، وتأثيره في جميع الأنساق العمرانية. ولئن كانت آيات الأحزاب، قد طرحت مقومات النموذج السَّديد، وأفرزت النماذج المنحرفة عن تسديدات الشرعة والمنهاج، فإن التوحيد هو القيمة المركزية؛ التي تتفرع عنها القيم العبادية، والقول السَّديد، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: 70]. والبدء بصفة الإيمان، يعني تحديد منطلق الحياة وهدفها، لأن "تذكر الله وحضوره، يعنيان إضفاء المعنى والهدف على حياة الإنسان."[1] وبهذا يصبح الإيمان مسدِّداً لجهود الإنسانية إلى الخير والسلام، بما يوحي بضرورة تربية هذا النموذج، وتزكية مقدراته الفكرية، ورفعه إلى مستوى الكينونة الأخلاقية، المبرَّأة من جميع الأداءات اللفظية والسلوكية المنحرفة. فإذا كان العدل يعني مدافعة الظلم، فقد ندَّد الله بجميع الممارسات المؤذية إزاء رسل الله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب: 69]. وقدَّم نموذج السَّداد بخصائص الإنسانية المشرّفة في جميع قوالبها الأخلاقية. ومن ثمَّ، تعطي هذه المفارقة قيمة كبرى لدلالات الخطاب السَّديد لوراثة أمانة الاستخلاف. يؤكد القرآن أن النموذج السَّديد الموسوم بتوصيفات قيمية، تشكل فيما بينها فلسفة السَّداد في المنظومة القرآنية. يسعى بالكلمة السَّديدة، ويؤدي الأمانة وفق متطلبات التكليف.

وبناءً على هذه المعطيات، فإن هذه الدراسة تهدف إلى معرفة الحقل اللغوي لمفهوم السَّداد، ورصد هذا المفهوم في اصطلاح المفسرين، ثم بيان مفهوم السَّداد في السياق القرآني، ثم نختم ببيان الحقل الدلالي القرآني للسَّداد. وتتجلى أهمية هذه الدراسة، في كونها تناقش مفهوماً أخلاقياً، يرتبط بمقاصد الدين، ويؤثر في جميع الأنساق العمرانية، ويحكم البنية العلائقية. ويؤطر الحياة في مستوياتها الفكرية والسلوكية. ويندرج هذا البحث، في إطار توجه جديد في الدراسات القرآنية، بإعادة ضبط المفردات في ضوء السياقات

[1] مالك، فضل الرحمن. **المسائل الكبرى في القرآن الكريم**، ترجمة: محمد أعفيف، بيروت: جداول للنشر والترجمة، ط1، 2013م، ص60، 61.

القرآنية. وإذا كانت سورة الأحزاب، قد أبرزت البُعد الكوني للنموذج السَّديد، فإن سورة النساء، تناولت مداخل التقوى ومقتضياتها، وإعادة بناء النموذج الأسري السَّديد في إطار الوحدة الجامعة بين الخلق. وقد ورد المفهوم في سياق ضبط المعادلة الإنسانية، وهذا بدوره يستلزم إعادة ترسيخ فكرة السَّداد في وعي المسلم، وتربية مقدراته اللفظية والسلوكية على هذا المبدأ العظيم. وانطلاقاً مما سبق يتقرر لدينا، أن غياب فكرة التَّسديد في منظومتنا الفكرية، أضحى خطراً يهدد أجيالنا، نتيجة لاتساع الهوة بين القيم والواقع، ممّا يقتضي تقديم البديل الأخلاقي، واستثمار هذا المفهوم في ترشيد المسارات الأخلاقية. فلا يزال القرآن هو الوعاء الذي تتشكل منه قوالب الإنسان، وتستمد منه جميع الكمالات الأخلاقية. وبالرغم من أهمية فكرة السَّداد، إلّا أنّها لا تزال تطرح في سياقات وعظية، بعيدة عن أي توجُّه بنائي، يرصد حقيقة المفهوم، بما يفتح النظر لمزيد من البحث لاستجلاء أوضح لمكتنزات القرآن، والتعامل مع مفرداته كوحدة بنائية متكاملة. وحسب علمي المتواضع، فإن الموضوع لم يناقش بهذا الطرح الجديد، فجاءت هذه الدراسة المتواضعة، استكمالاً للجهود، وتدعيماً لأي طرح جديد، يفتح مغاليق القرآن على معانٍ ودلالاتٍ لا تزال مخبوءة في منجم القرآن. كما أنوّه بجهود الفيلسوف طه عبد الرحمن في كتابه سؤال الأخلاق، الذي ضبط مفهوم العقل المسدَّد، ونتصور أنه إضافة نوعية فارقة.

أوّلاً: الحقل الدّلالي اللغوي لمفهوم السَّداد

تُعدُّ الدراسة اللغوية المدخل الرئيس في بناء مفهوم السَّداد، وبهذا يتوجب علينا إجراء مسح حول الخارطة اللغوية لهذه المفردة. وبالعودة إلى أقدم معجم وهو العين للخليل بن أحمد (170هـ)، نجد أن السَّداد يطلق على ما تُسَدُّ به الكوَّة، وردم الثلمة، والقصد، والاستقامة والصواب، والرشاد، "السَّداد: هو الشيء الذي تُسَدُّ به كوَّة، ومنه السَّد ردم الثلمة... والسَّداد هو إصابة القصد والسَّداد، مصدر ومنه السَّديد...وقولاً سديداً أي صواباً. ومنه نقول: سدَّدك الله أي وفقك للقصد والرَّشاد."[2] وفي تهذيب اللغة للأزهري

[2] الفراهيدي، الخليل بن أحمد. **كتاب العين**، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د.م: دار مكتبة الهلال، د.ت، ج7، ص183، 184.

(370هـ) معناه: "الإصابة في المنطق، أن يكون الرجل مسدّداً، إنَّه لذو سداد في منطقه وتدبيره."[3] وأما في مقاييس اللغة لابن فارس (395هـ): "السين والدال أصل واحد، وهو يدل على ردم شيء وملاءمته...وكل حاجز بين الشيئين سدّ. ومن ذلك السَّداد أي الاستقامة؛ كأنه لا ثلمة فيه، والصواب أيضاً."[4] ونجد اتجاهاً جديداً مع أبي هلال العسكري (395هـ) في تحديد دلالة اللفظ؛ إذ يربط التَّسديد بإعادة توجيه مسار الفعل أو تقويمه، فالسَّداد هو إغلاق الخلل، والصواب مأخوذ من الصوب لا خطأ فيه، وعليه، فإنَّ المسَّدد يجتهد، قد يصيب وقد يخطئ، ولهذا فهو موجّه للصواب، يقول: "هو التوجيه للصواب، فيقال سدَّد لهم إذا وجه الصَّواب، والتقويم إزالة الاعوجاج...فالمسدد المُقوّم لسبب الصلاح، والتَّسديد يكون في السبب المولّد."[5] وبهذا القيد، يضيف معنى التوجيه والقصد للصواب. ويوافقه الراغب الأصفهاني (502هـ) في تحديد المعنى الأصلي للكلمة، فهو ما يسدّ به الخلل، ثم توجيه إرادة الفعل للصواب والاستقامة. "السَّداد الاستقامة وما يسد به الثلمة واستعير لما يسدُّ به."[6] وأما ابن منظور (711هـ)، فلم يكتفِ ببيان أصل الكلمة، وردم الخلل، وإنما أعطى دلالات منها: الإصلاح والتوثّق، "السَّدُّ هو إغلاق الخلل، وردم اللثم، سدّه يسدُّه سدًّا، فانسدَّ، وسدَّده: أصلحه وأوثقه ومنه، السَّداد بالفتح، فإنّما معناه، الإصابة في المنطق."[7] وعرّفه المناوي (1031هـ) بأنه "الاستقامة وما تسدُّ به الثلمة."[8] وقال الزبيدي (1205هـ): "أي القصد والاستقامة...وقولاً سديداً أي صواباً."[9] ومنه التَّسديد في اللغة: "أي الاستقامة، مأخوذة من السدّ هو إغلاق الخلل

---

[3] الأزهري، محمد بن أحمد. **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م، ج12، ص195.

[4] ابن زكريا، أحمد بن فارس. **مقاييس اللغة**، تحقيق: أحمد محمد الشامي، القاهرة: دار الحديث، 2008م، ج1، ص403.

[5] العسكري، الحسن بن عبد الله. **الفروق اللغوية**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مصر: دار العلم والثقافة، د.ت، ج11، ص211.

[6] الأصفهاني، الحسين بن محمد الراغب. **المفردات في غريب القرآن**، دمشق: دار القلم، ط1، 1412هـ، ص403.

[7] ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ، ج3، ص208.

[8] المناوي، زين الدين محمد. **التوقيف على مهمات التعاريف**، القاهرة: عالم الكتب 38، ط1، 1416هـ/1990م، ج1، ص192.

[9] الزبيدي، محمّد بن عبد الرزّاق. **تاج العروس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، ج8، ص178.

وردم الثلم، والسَّداد: هو الذي لا ثلمة فيه، والصواب في اللغة: خلاف الخطأ مأخوذ من الصوب، وهو نزول الشيء واستقراره في قراره، وقد ورد اللفظان في القرآن وصفاً للقول، فتكررت كلمة سديد مرتين، والقول السَّديد: هو الذي يوافق الحق والعدل....وهذا لا يتضمن أن القائل لا يخطئ، ولكنه يريد الحق، وقد يصيبه وقد يجتهد ولا يصيب الحق، وأما كلمة صواباً: فقد وردت مرةً واحدةً في قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38]، والصواب هنا منسوب للملائكة هو بإذن الله، وإلهام منه فلا يعتريه الخطأ."[10]

ثانياً: السَّداد في منظور المفسّرين

بالنظر في تفسير مجاهد (104هـ) السَّداد: "هو العدل"[11] وفسّره مقاتل (150هـ) "بالتوحيد."[12] وهذه المعاني من القيم البارزة في المنظومة القرآنية. وأضاف الطبري (310هـ) بقوله: "السَّديد من الكلام هو العدل والصواب."[13] وهو "القول القاصد غير الجائر، والحق غير الباطل."[14] وبهذا يكون، قد أضاف عناصر مهمة في التركيبة الدلالية منها: القصد، والصواب، والحق. وذكر الماوردي (450هـ) وجوهاً للسَّداد منها: "العدل، الصدق، الصواب، قول لا إله إلّا الله، موافقة الظاهر للباطن، إرادة وجه الله دون غيره."[15] هذا التّنوع، يوحي بعدم انضباط السَّداد على دلالة واحدة عند المفسرين. وأصل السَّداد عند الراغب (502هـ): "إزالة الاختلال."[16] وبهذا يكون قد ربط المعنى

---

[10] داود، محمد محمد. **معجم الفروق الدلالية**، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د2008م، ص289. 290.

[11] أبو الحجاج، مجاهد بن جبر. **تفسير مجاهد**، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، مصر: دار الفكر الإسلامي، ط1، 1410هـ، ج1، ص268.

[12] ابن سليمان، أبو الحسن مقاتل. **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1423هـ، ج3، ص510.

[13] الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، د.م: دار هجر للطباعة والنشر، ط1، 2001م، ج6، ص453.

[14] المرجع السابق، ج19، ص195.

[15] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. **النكت والعيون**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ج4، ص428.

[16] الأصفهاني، الحسين بن محمد. **تفسير الراغب الأصفهاني**، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، جامعة طنطا: كلية الآداب، ط1، 1999م، ج3، ص1114.

اللغوي بالدلالة الاصطلاحية، فالسَّداد هو ردم الثّلمة، واستعير لما تسدّ به ثغرات القول، وإزالة الاختلال في القول والعمل. ما نلاحظه أن معظمهم فسّر السَّداد من خلال السّياق الخاص بالآية. وقد ذكر الزمخشري (538هـ) عنصراً مهماً في بنية المفهوم (القصد، والعدل)، وهو من المعاني النفسية، والعدل من الأوصاف الفعلية: "القصد إلى الحق، والقول بالعدل، ومنه سدَّاد القول رأس الخير كله."[17] ممّا يعني أن السَّداد هو حركة قصدية نحو الحق.

ومن الجدير بالملاحظة، أن الرازي (606هـ)، لفت الانتباه أنَّ الْأَقوال هي الحق "لأن من أتى بالخير، وترك الشر، فقد اتقى الله، ومن قال الصدق قال قولاً سديداً. ثم وعدهم على الأمرين: على الخيرات بإصلاح الأعمال، فَإِنَّ بتقوى الله يصلح العمل، وعلى القول السَّديد بمغفرة الذنوب."[18] ومن الجدير بالذكر، أن السَّداد عند أبي حيّان الأندلسي (745هـ) معناه: "الاستواء في القول والفعل."[19] وسّع دائرة السَّداد إلى الأفعال. وأعطى مدلولاً إضافياً له، يظهر الارتباط بالاستواء من القول، والاستقامة بأنها "الطريق الذي يكون على خط مستوٍ."[20] وأما ابن كثير (774هـ) فقال: "مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف."[21] وبهذا يصبح الاستواء من العناصر المشكلة للسَّداد. وهذا ما يجعل إمكانية النظر متاحة لمزيد من الاستكشاف لدلالات مكتنزة في هذه المفردة القرآنية. كما نلاحظ أنَّ الطوسي (460هـ) استحضر المعنى اللغوي الجامع لأصل اللفظ، واستخدمه مضافاً إلى السلامة من خلل الفساد والبراءة منه، يقول: "وهو السليم من خلل الفساد، وذلك الحق بالدعاء إلى العدل في القسم بما لا يجحف الورثة، ولا يحرم ذوي القربى. وأصل السَّداد من

---

[17] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ، ج3، ص563، 564.

[18] الرازي، محمد بن عمر بن الحسن الفخر. **مفاتيح الغيب**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ، ج25، ص186.

[19] أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي. **البحر المحيط في التفسير**، بيروت: دار الفكر، 1420هـ، ج3، ص530.

[20] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص692.

[21] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، د.م: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ، 1999م، ج6، ص487.

سدَّ الخلل، والسَّداد: الصواب."[22] ويقول أيضاً: "القول السَّديد: أي صواباً بريئاً من الفساد، خالصاً من شائب الكذب والتمويه واللغو."[23]

وبالنظر في أقوال المتأخرين، يقول القاسمي (1332هـ): "أي قويماً حقاً صواباً، قال القاشاني: هو مادة كل سعادة، وأصل كل كمال، لأنه من صفاء القلب، وصفاؤه يستدعي جميع الكمالات، وهو وإن كان داخلاً في التقوى المأمور بها، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب مندرج تحت التزكية."[24] ويؤكد أنّه "بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل، لأنَّه لا يصحّ عمل ما بدون الصدق أصلاً"[25] حاول القاسمي إعادة بناء هذا المفهوم في ضوء السِّياق، عادّاً قيمة التقوى جامعة لكل ما يأتيه الإنسان ويذره. ووسّع دائرة القول للتأكيد على حيوية الفعل في الواقع. ومنطلق السَّداد، صفاء القلب، هذا الأخير الذي يستدعي جميع الكمالات القولية والسلوكية، مؤكداً أن صلاح الأعمال، يتوقف على الصدق. وعرّفه رشيد رضا (1354هـ) بقوله: "الحكم الذي تدرأ به المفسدة، وتحفظ به المصلحة."[26] هذا التعريف نقلة نوعية في بناء المفهوم، أخرج هذه المفردة من نطاق التفسير المفرداتي، وتوجّه بها إلى بناء السَّداد على مقصد النفع والضرر، يعني إعادة تأسيس المفهوم على مقاصد الدين. ولما كانت "المقاصد الدينية، التي هي معانٍ ثابتة وشاملة، أجلب للنفع وأدفع للضرر من غيرها. لزم أن ينفتح للمتخلق بها طريق إدراك المقاصد النافعة."[27] وبناءً عليه، فإنَّ السَّداد يضبط القول والفعل، بناءً على ما فيه من مصلحة أو مفسدة، وهذا القول توجّه جديد في قراءة المفهوم في ضوء مقاصد الدين، ممّا يعطي إمكانية النظر في استدعاء نوع العقل، الذي يبني القول والفعل بناءً مسدَّداً. يقول طه عبد الرحمن: هو "الذي اهتدى إلى معرفة المقاصد النافعة."[28]

---

[22] الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن. **البيان في تفسير القرآن**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج1، ص125.

[23] المرجع السابق، ج2، ص366.

[24] القاسمي، جمال الدين بن محمد. **محاسن التأويل**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ، ج8، ص123.

[25] المرجع السابق، ج8، ص124.

[26] رضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ج4، ص323.

[27] عبد الرحمن، طه. **سؤال الأخلاق**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2000م، ص73.

[28] المرجع السابق، ص71.

أضاف السعدي (1376هـ): "هو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين....والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك."[29] يوحي بهذا التعريف بعلو رتبة الصواب عن رتبة السّداد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38].[30] وأشار سيد قطب (1385هـ): هو "إحكام القول والتدقيق فيه، ومعرفة هدفه واتجاهه."[31] تهدف هذه المعاني إلى تقويم إرادة الإنسان وحركاته نحو الهدف المطلوب. والأكثر أهمية، أنه وسع دلالة هذه المفردة بقوله: "هو القول الصالح الذي يقود للعمل الصالح."[32] ومن الجدير بالملاحظة، أن ابن عاشور (1393هـ) قال: "فليتقوا الله في أموال النَّاس وليحسنوا إليهم القول."[33] والسَّداد عنده: "هو الصواب والحق...فشمل الأقوال الواجبة، والصالحة النافعة."[34] خلاصة القول، إن ما حرص المفسرون على التأكيد عليه، هو شمول السَّداد لكل مجامع الخير، والأقوال الصالحة والنافعة على المستوى الديني، وإبراز التعالق بين سَداد الكلمة وصلاح العمل. وأكّدوا استيعابه لجميع المنظومات، واستيعابه للأقوال والأفعال.

كما نلاحظ، أن هذا المفهوم عند المتقدمين، قد ارتبط بشبكة مفهومية منها: التوحيد، العدل، الصواب، الصدق، القصد، الحق، الإخلاص، الخير، البراءة من الفساد، الاستواء، الاستقامة، ممّا يؤكد البُعد القيمي للسَّداد، وتنوع دلالاته، وليس هذا فقط، وإنما هو من المفاهيم المؤطرة للكلمة، وإضفاء القيمة على الحركة القولية والفعلية، ولا يطال أفعال الجوارح فقط، وإنّما يطال أفعال القلوب (فعل قصدي). وبناءً على ما قلناه، فإن هذه الجهود، أعطت بعض المعاني، مع مزيد من التقصي لاستخراج دلالات جديدة،

---

[29] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. **تيسير الكريم الرحمن**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، د.م: مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م، ج1، ص673.

[30] رسم النبي مستويات للخطاب السّديد (السَّداد، المقاربة، القصد)في قوله ﷺ: "**سَدِّدُوا وَقارِبوا، وَاغْدُوا وَروحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا.**" انظر:

– البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، د.م: دار طوق النجاة، باب: القصد والمداومة على العمل، ط1، 1422هـ، ج8، ص98، حديث رقم6463.

[31] قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مصر: دار الشروق، ط17، 1412هـ، ج5، ص2884.

[32] المرجع السابق، ج5، ص2884.

[33] ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984هـ، ج4، ص253.

[34] المرجع السابق، ج22، ص122.

لا تزال مخبوءة في منجم المفردات القرآنية، وإن كنا نسجل بعض المحاولات، بقصد إعادة بناء هذا المفهوم متخذين من المقاصد النافعة مجالاً لاستثمار هذا المفهوم في تحقيق مقاصد الدين، خاصة أنه ليس قيمة دينية تؤطر الحركة الاستخلافية فقط، وإنما هو انبثاق جمعي لمعطيات (الروح، القلب، العقل)، وهو يطال العقل أيضاً. وقد قدّم طه عبد الرحمن تصوراً جديداً لمفهوم العقل المسدَّد بقوله: "هو العقل الذي اهتدى إلى معرفة المقاصد النافعة، فحينئذ يكون العقل المسدَّد، قد استوفى الشرط المنصوص عليه في معيار التقويم، أي الثبات والشمول، لكن على استيفائه لهذا الشرط، لا يمكن الاعتبار بهذا العقل حتى ننظر كيف هو عند استيفاء الشرط، المنصوص عليه في معيار الفاعلية المتعلق بالوسائل."[35] وبهذا نصل أنَّ السَّداد من المصطلحات العلمية، وهو من متكسبات القرآن ومستخرجاته.

من الجدير بالذكر أن القول ليس حركة عبثية؛ بل هو مظهر للحق (السَّداد، الصدق، الطيب، الحسن، الثابت، المعروف)، كلها نعوت ناظمة لحركة القول في القرآن. فليست الكلمة حركة لا جواذب إحكام لها. وإنما هي وسيلة للتواصل السليم مع منظومة العلائق، يقول ﷺ: "إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ."[36] وبناءً عليه، تتجلى لنا حقيقةٌ مفادها، أن التواصل بالكلام هو تواصل أخلاقي. لذا دعا إلى التخلُّق بمكارم الحق، والتنزه عن الدوافع المقيتة، والمصالح المستعجلة. وهذا في حدّ ذاته، هو تجربة تزكوية، وعملية تسديدية للمقدرات المعرفية والسلوكية من أجل إقامة الدين القيم. وإرساء قواعد السداد في منظومة الكون.

ثالثاً: مفهوم السَّداد في السّياق القرآني

ورد لفظ السَّداد في موضعين، منها قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: 09]، وقوله أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

[35] عبد الرحمن، **سؤال الأخلاق**، مرجع سابق، ص71.

[36] البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب: الرقاق: باب: حفظ اللسان، ج8، ص101، حديث رقم6478.

ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: 70]، ومع قلة وروده، لم تنضبط دلالته عند المفسرين، فبينوا حقيقته من خلال السياق. وإذا كانت دراسة المفاهيم، تُعدّ مدخلاً مفتاحياً لولوج المعنى، فإنه من الضروري، تتبع سياقات المفهوم، واستكناه معناه في القرآن. إن المتتبع للوضع الجاهلي، يلاحظ أن الظروف المنتجة للنص، وما تضمنه من تشريعات تنظيمية لبنية الأسرة، تتمثل في التقاليد الجاهلية المشكلة لأنماط سلوكية، أفرزت واقعاً يعجّ بالتناقضات، وغياب فكرة الآخرة وانعكاساتها الخطيرة على مستوى الفكر والسلوك. وبالنظر في النظام الجاهلي، يتأكد لنا أنَّ مبدأ الذكورة، هو المؤثر في تشريع القوانين، ودواليب رأس المال بيد الرجل، ولا حق للمرأة والصغار في الكينونة المالية. وقيام العلاقات على روح القبلية وأعرافها، جعلها تميل نحو منطق النفعية، وتغذي النزعة الفردانية، وتؤثر بقوة في بناء المنظومة المجتمعية على هذا التوجه. ويبقى الميراث المعنوي الذي يتوخاه الجاهلي هو المجد القبلي المتوارث عن الأجداد. وأمّا نظام الإرث فتحكمه الأعراف القبلية؛ إذ لا يُعطى إلَّا للشديد من الرجال ممن يطعن بالرمح، ويضرب بالسيف.[37] فجاء القرآن وأحدث هزة عنيفة في بنية المفاهيم، وأعاد بناء العلاقات الأسرية على مبدأ التوحيد، وجعله العنصر المؤثر في بنيتها ومكوناتها، والموجه لكل العلاقات في إطار مبدأ التقوى. وأقام حقوق الضعفاء على مبدأ الإحسان. ووضعها في قوالب يفرغ فيها المجتمع الممارسات الإحسانية لهذه الأصناف المجتمعية.

1. الدراسة السِّياقية لآية النساء:

من المفيد القول، إن توريث المرأة والاعتراف بكينونتها المالية هو نوع من الإذلال للجاهلي، المتحكم في دواليب الأسرة. فجاءت سورة النساء لإقامة وعي الإنسانية على مقتضيات السَّداد التوحيدي، وأعادت نسج العلاقات في إطار وحدة الإنسانية (النفس الواحدة)، ووحدة المجتمع (الأسرة)، انطلاقاً من وشيجة الربوبية، وما يؤطرها من

---

[37] نزلت في أم كحلة وابنة كَحْلة، وثعلبة وأوس بن سويد، وهم من الأنصار. كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها، فقالت: يا رسول الله، توفي زوجي وتركني وابنته، فلم نورَّث! فقال عم ولدها: يا رسول الله، لا تركب فرساً، ولا تحمل كلا ولا تنكى عدوّاً، يكسب عليها ولا تكتسب، فنزلت: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [النساء:7]، انظر:
– الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج7، ص598.

مقتضيات الشرعة والمنهاج. ولهذا ركز الله ﷻ على بنية الأسرة، ووضع القواعد المؤطرة لها. ولا تستقيم علاقات الرحم إلّا برقابة الله لحركة التقوى، والتراحم العائلي. وإذا كان الخطاب قد تمّ في إطار الوحدة الجامعة، فقد جمع الله بين تقواه وتقوى الأرحام، وحذر الناس من مخالفة ربهم، فجميعهم ينتمون لوشيجة واحدة، وبهذه الوصلة، دعاهم أن يتقوا الله في الضعفاء والأيتام، ويحسنوا إليهم. ومن تقوى الله فيهم رعاية حقوقهم المادية والمعنوية. وأكد أن المعيار ليس هو مبدأ القرابة، فلا يعرف الإنسان أيهم أقرب نفعاً للميت، فلا مجال للأهواء، عندما يتعلق الأمر بضوابط التشريع وأوامره، فثمة الحكمة والسَّداد. ومن مؤشرات تقوى الله الإحسان لهذه الفئات المجتمعية، فقد جعل للضعفاء ذمماً مالية مستقلة، ولا يتم مراعاة ذلك إلّا بتقوى الله ووقاية النفس عبر طاعة الله وأمره.

وبناءً عليه، توضح السُّورة مداخل التقوى، مقتضياتها، والطريق إليها، ومن ذلك إعطاء الضعفاء حقوقهم المادية، وعدم الزواج بالأيتام خشية وقوع الظلم، والأحكام المتعلقة بأموال اليتامى، وبعضها متعلق بالأوصياء في كيفية التعامل مع أموالهم. وإعطاء المرأة حقها في المهر. كما قدم قاعدة عامة في الميراث بإثبات حق الرجال والنساء في الميراث. ومن المهم القول، إن هذه الأوامر وردت في السورة بعد التقوى، ممَّا يعني أن مقتضى التقوى طاعة أوامر الله. وإذا كانت تقوى الله موصلة بين الحق والخلق، فإن تقوى الرحم، تقتضي إثبات الوصلة مع ضعفاء الأرحام، واتقاء قطيعة الرحم التي تقطع رحمة الله على الخلق. ومن ثم، فإنَّ تذكير الله بوصف الإنسانية، يثير عواطف الرحمة على ذوي الأرحام والضعفاء، ومراقبة الله تحرك مكامن الحس إزاءهم. وبناءً عليه، فإنَّ من تجليات التقوى الظاهرة، دفع أموال اليتامى إذا بلغوا الرشد، وعدم استبدال الأموال الخبيثة بالطيبة، أو أكل أموالهم بالضَّم أو المخالطة، إلّا أن تكون الخلطة لصالح الأيتام، والنهي عن أكل أموالهم ظلماً، لأن كل ذلك يتنافى مع مقتضيات التقوى. كما يحرم السفهاء من أموالهم، فإن كانت التقوى تقتضي الدفع؛ بموجب مؤانسة الرشد للأيتام، فإنه من التقوى عدم تسليمهم إن كانوا سفهاء مع الإحسان إليهم، والإنفاق عليهم.

ومن المفيد القول، إنّ القرآن أثبت حق النساء في الإرث، وكرّر ذلك دحضاً للأعراف الجاهلية التي كانت تغمط المرأة حقها. فجاء النص مقرراً الذمة المالية المستقلة للنساء، ووسع دائرة العطاء لتشمل الفقراء والمساكين والأيتام، لما في ذلك من جبر للخواطر، ومشاركة الضعفاء وجدانية العطاء، يقول النسفي: "وهو أمر ندب... وقوله ﷻ ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [النساء: 8]، عذراً جميلاً وعدة حسنة."[38] لم يترك القرآن مجالاً إحسانياً، إلَّا ويدخل الأيتام فيه، سواء جاء في سياق الواجب أو المندوب. يقول تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النساء: 9]. إن المتتبع لآراء المفسرين، يلاحظ اختلافهم في تحديد المخاطب، وتعدد وجوه التأويل، وإن كانت تغدو متقاربة، فأما جهة المخاطبين، فإما أنها توجيه للأوصياء أو لأولياء اليتيم، وعدم انضباطها على معنى معين، فتح المجال لتأويلات، صاغها ابن العربي بقوله: "نهي لمن حضر عند الموت على الترغيب له بالوصية، حتى يخرج إلى الإسراف المضر بالورثة، أو نهي للميت عن الإعطاء في الوصية للمساكين والضعفاء، أو نهي لمن حضر عند الميت عن ترغيبه في الزيادة في الثلث، أو أن الآية راجعة إلى ما سبق من ذكر اليتامى وأموالهم وأوليائهم، فذكروا بالنظر في مصلحتهم والعمل بما كان يرضيهم أن يعمل مع ذرياتهم الضعفاء وورثتهم."[39] يقول تعالى: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9]. إذا تفحصنا آراء المفسرين، فإن ما يثير الاهتمام، أن معظمهم ربط القول السَّديد بالوصية المالية. أي يدور حول العدل في الوصية وعدم الإسراف فيها، والتعامل مع مال اليتيم بالعدل والإحسان، وفي هذا تضييق للمصطلح؛ إذ فسّر لفظ السَّداد بكونه "العدل في الوصية، فلا يحرفها ولا يجر فيها."[40] وغير بعيد عن هذا، يقول الزمخشري: وأن "لا يؤذوا اليتامى، ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن، وعدم الإسراف في الوصية."[41]

وفي السياق ذاته، تحدث القرآن عن ظاهرة اليتم في إطار الأرحام، وجعل الوصاية عليهم في إطار العلاقة ذاتها، والقيام على أموالهم بالوصاية، يعني مراعاة الضوابط

---

[38] النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، بيروت: دار الكلم الطيب، ط1، 1998م، ج3، ص333.

[39] ابن العربي، محمد بن عبد الله. **أحكام القرآن**، بيروت: دار الكتب العربية، ط3، 2003م، ج1، ص429.

[40] ابن سليمان، **تفسير مقاتل بن سليمان**، مرجع سابق، ج1، ص360.

[41] الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، مرجع سابق، ج1، ص475.

التشريعية المؤطرة لهذه الفئة المحاطة بسياج من القيم الناظمة للنسيج المجتمعي. وبناءً عليه، فإن أغلب التعريفات، تهدف إلى المحافظة على أموال الأيتام وضبطها "بالعدل والحق الذي لا خلل فيه ولا فساد ولا إجحاف لوارث أو حرمان لذي قرابة."[42] إنَّ المتتبع للقرآن، يلاحظ مدى العناية بشأن الأيتام، فقد أعاد ضبط ظاهرة اليُتم، وأحاطها بجملة من التشريعات، ولهذا فإن ضم الأيتام للنسيج الأسري، يسهل القيام بشأنهم. وإذا كان المفسرون قد شغلتهم قضية العدل مع الأيتام، فكما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فيجب أن تعامل ذرية غيرك، فإن السَّداد يعني أنه "لا نصيب الهدف بمجرد تطييب القول لهم، بل القول الداعم للمحافظة على حقوقهم، فإن رأى أي خلل في القسمة، سدّد القول ومنع الظلم في أي تصرف من التصرفات."[43] ومن ثم، فإنَّ "العدل هو ميزان بين أمرين لنفي الظلم وفقاً لقواعد معينة، وأما القسط في اليتامى هو أرفع وأدق من العدل بين النساء."[44]

هنا نجد أنفسنا أمام لحظة فكرية فارقة، بغض النظر إن كان الخطاب موجهاً للأوصياء أو غيرهم، فإنه يبقى الفضاء المعرفي للنص، يتسع لدلالات أكبر من السياق المادي، وإن كان جزءاً من الخطاب. فإذا كان المال عصب الحياة، فقد جعله الله محلاً للاختبار لقوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: 46]. وقد فُطر الإنسان على هذه الشهوات المزينة في الكينونة الذاتية، وتتفاعل بناءً على معطيات النفس الإنسانية، فإما الإيمان أو الهوى. ومعلوم أن الاختبار جعله الله حكمة للخلق، وما يتطلبه من استثمار عنصر الصلاح في التعامل مع معادلة المال والبنون. وقد تحدث السياق عما يقيم حياة الضعفاء، وجعل المال مادة الاختبار الكاشفة عن معدن الأولياء. إذا كان القرآن قد جعل المحافظة على أموال الضعفاء في صميم الإيمان، فماذا قدّم لقوام الحياة المعنوية. وما الغاية المرجوة من الجهود التربوية سوى تحصيل الصلاح؟ أو ما يسمى بالمردود القيمي للسعي الجاد بالذرية الضعاف، بما يحقق طاعة الله وتقواه فيهم. إن الناظر في السياق، يلحظ أن الآية، تتوجه نحو إقامة حياة الضعفاء على مقصد الآخرة، بعدما وضع

---

[42] ابن العربي، **أحكام القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص372.

[43] أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى. **زهرة التفاسير**، د.م: دار الفكر العربي، د.ت، ج3، ص1597.

[44] حاج حمد، أبو القاسم محمد. **تشريعات العائلة في الإسلام**، بيروت: دار الساقي، ط1، 2011م، ص140.

الإجراءات اللازمة، بما يحفظ مقصد المال، ويقابل القرآن ذلك بتوجيه للأولياء، بتسدِّيد حياتهم على مقتضى التوحيد وفي ضوئه، يتم التعامل مع الضعفاء.

ومعلوم أنه لا يحفظ الإيمان إلّا بحفظ مدخلات النفس، وصونها بميزان التقوى والتسدِّيد في التعامل مع الذرية الضعيفة، وليس تبعاً للأهواء. وإنما يتحقق القيام بالعلم وضوابط الخشية، ومنطلقات التقوى، وجميعها يتسدَّد في ضوء ضوابط الكلمة. وعلى الجملة، فإن الآيات تحدثت عن الإجراءات العملية للمحافظة على الأموال، وعدم سلبهم الحق الذي يؤدي إلى إضعافهم معنوياً، لأنَّ المال يعطي المنعة، ويجعلهم أقوياء في الحق، إذا تربوا على قيم الخير والصلاح. إنَّ ضعفهم مع التقوية بالإحاطة والعناية، يعطيهم القوة في الحق. وبناء عليه، فإذا كانت الآيات السابقة، قد وضعت الإجراءات التطبيقية لحفظ المال، فإن المعادلة لا تكتمل إلَّا بتسديد الضعاف نحو معطيات الشِّرعة والمنهاج. تُعدّ هذه الآية نقلة نوعية في إعادة تأطير الضعف في سياق قيمي، بما يعطي الحق لإقامة حياة الضعفاء في الصلاح. وعليه، فإنَّ "الذي ينبغي للمسلم أن يدخره لعياله التقوى والصلاح لا المال لأنه لم يقل فليجمعوا المال."[45] يحمّل الله المسؤولية للأولياء تجاه ذريتهم الضعاف، بوضعهم على طريق التقوى وتسديدهم للحق. وحفظ المقاصد الدينية، وأهداف العمارة الكونية. والارتقاء بهم بواسطة الإيمان ومتطلبات العبادة إلى النموذج الصالح. إن الخوف على مستقبل الضعاف، مرهون بقيومية الأولياء على حياة الإيمان، والصلاح هو معيار الوصلة بين الآباء والأبناء، حتى لا يضعفوا في معركة الحياة وبناء الفضيلة. وهذا ما لمسناه من ربط الله ﷻ بين العلم والخشية، وتحري تقوى الله في مواقع التربية، وتسدّيد الأفكار والمفردات، لتسهم في بناء الذرية، وتسديد أهدافها لضمان الفلاح.

ومقتضى التوجيه القرآني، يقضي بأنَّ السَّداد في الآية، بناء حياة الضعفاء على طريق التقوى، وتسدّيد مساعي الأبناء على ضوابط الشرعة والمنهاج. يحذر السياق الآباء من التقصير بترك ذريتهم ضعافاً في معرفتهم بربهم، ومقتضيات المنهج المسدِّد للجهود، وعُدَة

[45] القشيري، عبد الكريم بن عبد الملك. **لطائف الإشارات**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، د.ت، ج1، ص316.

الخشية المقصودة، هي تقوى الله فيهم والتزام الصدق معهم بالقول السدّيد، وهذا المعطى، لا يمكن الوقوف على فضائه المعرفي إلّا في ضوء السياق؛ لأن المعنى لا يدرك في سياق جزئي، وإنَّما يتكشف مكنونه في ضوء السياق الكلي للسورة. وقد نبّه القرآن لمعالجة أي خلل يطرأ على حياة الضعفاء وأحاطهم بتشريعات في غاية الدقة. وهذه الدعوة للآباء بالسعي على ذريتهم بالإيمان والتقوى وتسديد الكلمة، حتى لا يهملوا مستقبلهم العبادي. وبناءً عليه، فإنَّ هذه القيم دعائم تبنى عليها حياة الآباء؛ الأوصياء، فتقوى الوالد وصلاحه، يثمران صلاح الذرية، وينطبق الأمر على من يتعهد شؤون الأيتام والضعفاء. ولهذا حذّر القرآن الكريم من أن الاعتداء على حقوقهم بإمتاع دنيوي، عاقبتُه جهنم. وبناءً عليه، فإن هذه التشريعات هي تسديد وتربية للأُمّة، حتى تحسن التعامل مع الضعفاء، تحقيقاً لمقصد التراحم في سياق الأسرة والمجتمع.

2. الدراسة السّياقية لآية الأحزاب:

لقد عدَّ العلماء مراعاة السياق من القرائن المهمة في مجال الدرس القرآني؛ فمن "الضوابط المهمة في حُسن فهم القرآن وصحة تفسيره، مراعاة سياق الآية، في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية، فيجب أن تربط الآية بالسياق الذي وردت فيه، ولا تقطع عمّا قبلها، وما بعدها، ثم تجر جراً لتفيد معنى."[46]

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: 70]. أوضح أبو موسى المناسبة بينها وبين السّجدة بقوله: "هذا الكتاب الذي ذكر الله سبحانه شأنه ووصفه في رأس السجدة هو الذي أمر ﷺ باتّباعه في رأس الأحزاب، وهذا ظاهر في أن السجدة كانت تهيئة وفرشاً للأحزاب."[47] وبالنظر في السياق، فإنَّ هذه الآية "مقررة للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عمَّا يؤذي رسول الله، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان لترادف عليهم النهي، والأمر مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى."[48] قال ابن كثير في سبب نزولها: "روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قسم

[46] القرضاوي، يوسف. **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، القاهرة: دار الشروق، ط3، 2000م، ص238.
[47] أبو موسى، محمد محمد. **من أسرار التعبير القرآني**، القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت، ص8.
[48] النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج3، ص48، 49.

رسول الله ذات يوم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله بما قلت: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه، ثم قال: رحمة الله على موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر."[49]

يبدو هذا المقطع مهم من الوجهة السياقية، يتوجه الخطاب بنصيحة إلهية، وتوجيه للمؤمنين حتى يكونوا في غاية التأدب مع الله ورسوله. فإذا عطّل قوم موسى القنوات المستقبلة للحق، فهذا يعني أن الأذى سواء كان لفظياً أو عملياً يحجب عن الحق، لكون هذه النزعة، تعدّ موقفاً مضاداً للحق، لأن النبي عليه السلام، لا يمثل ذاته، وإنما يمثل الحق والبلاغ، فهو القناة الواصلة بين الله والخلق. وعلى هذا الأساس، قرن الله بينهما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 57]. ثم دعا المؤمنين بأن يكونوا نموذجاً مبرأً من جميع صور الأذى، لما في ذلك من دلالات خطيرة على الصعيد الكوني والقيمي، وينم عن عقليات منحرفة ونفسيات مريضة، غير المؤهلة لاستقبال خطاب السلام والرحمة، الذي تحمله النبوات الهادية. ولهذا أعقب النهي عن إيذاء رسول الله بالأمر بالتقوى، فليس من التقوى التلفّظ بما يؤذي أنبياء الله. إنَّ اتخاذ موسى عليه السلام نموذجاً لضرب المثل، عائدٌ لكونه مفصلاً مهماً في الصبر على أذى قومه. يعرض القرآن مفارقة بين نموذج منحرف، أخفق قيمياً بمواقفه لابتعاده عن تسديدات النبوة. وآخر يقدم بديلاً أخلاقياً، وهو متصالح مع الله ورسوله، ومستعد لحمل الأمانة الكونية، ورفعة الإنسانية بالرشد والحكمة. وبنظرة سياقية، فإنَّ البديل السَّديد، يتواصل مع الله يالإيمان، ويتحرك في إطار السّلم، ويفارق النموذج المنحرف في النظر والسلوك.

وإذا كانت النفس المؤمنة تستقبل البلاغ بوساطة النبي ﷺ، فإن الله يحذر المؤمنين من مخالفة الأوامر الربانية، وضرورة حفظ مقام النبوة؛ بحفظ الألسنة بالتقوى والقول السَّديد. يقول النسفي: "صواباً وصدقاً أو قاصداً إلى الحق والسَّداد القصد إلى الحق، والقول بالعدل، والمراد ينهاهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد، وعدل في القول، على أن يسددوا قولهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس كل

[49] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج6، ص486.

خير...راقبوا الله في حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة."[50] هذا يعني، أنه ﷺ هو الدَّال على الله، وهو المسدِّد للحق من القول؛ بما يجعل النفس مؤهلة لممارسة التقوى، والقول السديد: هو القول الحق الذي لا أذية فيه للخلق؛ لأنَّ الأذى طعن في الحق سواء كان لفظياً أو سلوكياً. ولا يخرج الأذى من النفس النقية المسدَّدة بالشرعة والمنهاج. وهو "المستقيم لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه، بأن يصلح لهم أعمالهم، أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل، يلهمهم التوبة."[51] ويضيف الطوسي: "هو الصواب، البريْ من الفساد، الخالص من شائبة الكذب واللغو، موافق الظاهر للباطن، وقال مقاتل: هذا يتصل بالنهي عن الإيذاء أي قولوا قولاً صواباً، ولا تنسبوا رسول الله إلى ما لا يحمل ولا يليق، إن فعلتم يصلح لكم أعمالكم بأن يلطف لكم فيها حتى تستقيموا على الطريقة السليمة من الفساد، ويوفقكم لما فيه الصلاح والرشاد."[52] وبهذا يصنع النص فارقاً على مستوى المضمون، والأثر المنبعث من الكلمة السديدة، لأنَّ السَّداد من صميم الإيمان والتقوى. وبهذا يكون مفردة علمية وعملية في بناء النموذج الصالح. وعلى الجملة، فإن هذا المخطط يوضح مقومات النموذج السَّديد على النحو الآتي:

مقومات النموذج السَّديد	
١: مفتاح الإيمان (الإرادة التوحيدية).	١: الفضاء المعرفي للخطاب القرآني في سورة الأحزاب موجه للمؤمنين، بخلاف الخطاب في سورة النساء موجه للنّاس.
٢: مفتاح التقوى (القلب).	٢: البديل الأخلاقي للوارث للحق، هو النموذج السَّديد
٣: مفتاح السَّداد (اللسان).	المؤمن، التقي، المطيع للحق، الصادق في مسلك الحياة،
٤: مفتاح البراءة والسلامة (القول والفعل).	المسالم في معاملاته، المسدّد في القول، الصالح في سلوكه، الأمين على التكليف. المبرأ من جميع أشكال الظلم، القادر

[50] النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، مرجع سابق، ج3، ص48، 49.
[51] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ج6، ص487.
[52] الطوسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، مرجع سابق، ج8، ص141.

٥: مفتاح الصلاح (الجوارح). ٦: مفتاح التوبة (التصالح مع الله). ٧: مفتاح الجنّة (طاعة الله ورسوله). ٨: مفتاح الأمانة (التكليف). ٩: مفتاح العمارة (الإيمان والعلم والعدل).	على تحمل أعباء الأمانة الكونية في ضوء ضوابط الشرعة والمنهاج. ٣: كشفت الآيات عن البُعد الكوني للنموذج السَّديد في ضوء بعض المؤشرات منها: الإنسان، السموات والأرض، نبوة موسى ومحمد عليهما السلام. ٤: مؤهلات النموذج الذي يدير العمارة الكونية، تبنى على مقومات، تتم في ضوء معطيات الوحي ومحدّدات العلم ومقتضيات العدل.

ومن هنا يكون انتقاء اليهود نموذجاً للعبرة في سياق ضرب المثال، إلّا لأنهم بلغوا مستوىً كبيراً من صنوف الأذى والتطاول على أنبياء الله، بما يعكس المشترك الجامع (الأذى) بينهم وبين قوم نبينا ﷺ. ولهذا يحذّر الله في بداية السورة من إطاعة هذه الأمثلة المنحرفة عن الشّرعة والمنهاج. ووصف بني إسرائيل بقسوة القلوب، فمن أين يتحسسون آثار رحمة الله وأخلاقيات السلام، إذا رفضوا أن يسالموا الله بوصفه رباً وإلهاً وخالقاً. ولا تزال هذه النزعة العدوانية، تحكم مفاصل التركيبة اليهودية، كما يشهد الواقع. وقد تحدث عن أذية موسى دون أن يخصص شكلاً معيناً له، لتعدد صنوفه في فلسفة المنحرفين. واكتفى بهذا التوصيف؛ بما يجعل هذه السِّمة البارزة لأي نموذج منحرف. وتكون محلاً للعِبرة، لكونها ظاهرة زمنية متجددة في الواقع، مع تبرئة موسى من جميع التوصيفات التي لا تليق بمقام الأنبياء المصطفين. وقد تمّ التركيز على البراءة القولية للدلالة على بلوغ مستويات من انحراف الكلام عن مواضعه. بما ينمّ عن فقدان السَّداد في الكينونة النفسية والعقلية. هذا يعني بأن السّياق، يركز على البُعد الوظيفي للكلمة، ويحذر من العبث بمقدراتها ومقاصدها الأخلاقية، حتى لا تصبح طاقة سلبية تشوّه مبدأ السلام، وما تتضمنه آفات اللسان من الكذب، والبهتان، والغيبة، والافتراء... ولهذا ركز على أهمية التقوى ومحوريتها في بناء القول السَّديد، وهو يلمح إلى الدور الذي أدّته هذه الأطراف المنحرفة في غزوة الأحزاب. ومن هنا، يتبين لنا دلالة الارتباط بين هذه الآية والتحذير الموجّه للمؤمنين؛ الذين يمثلون نموذج الطاعة والكينونة القيمية في أرقى مواصفاتها، وبعدها

استعرض مواصفات النموذج السَّديد، مؤكداً على الأبعاد الكونية لهذا البديل، كما يجلي سياق الآيات اللاحقة.

وبهذا يغدو هذا النموذج المؤهل للاستخلاف، وتمثل الأهداف العبادية والمطامح الأخلاقية، بمقتضى القرآن. فلا تتحمل الأمانة إلّا في ضوء معطيات المنهج، ومقومات السَّداد كضمانة أخلاقية لبلوغ الرشد. فإذا كان الوحي هو المضمون القيمي لهذا البديل، فإنَّ هناك مجموعة من الآليات المؤطرة لهذا النموذج، تعدُّ بمثابة مفاتيح معرفية مسدِّدة لمسار الحياة الراشدة، وتعديل السلوك، منها العلم وهو ضد الجهل؛ الذي يحرم الإنسان من تطلعات السلم ومتطلبات الكمال. أما العدل فهو ضمانة أخلاقية حتى لا تنحرف الأمانة عن مقتضيات الخط المستقيم، والوقوع في الإفساد والظلم الذي حذّر منه، بعدم إطاعة جميع النماذج المنحرفة. وضبط القول بالسّداد والعمل بالصلاح، والقلب بالتقوى، والعقل بالعلم والمواقف بالعدل، جميعها مفاتيح لحمل الأمانة الكونية. ومن الجدير بالملاحظة، أنَّ القرآن أكّد على إخفاق هذه النماذج، لتلبسها بإيذاء إضاءات الهداية الكونية، لقد أغلق الله تعالى جميع المنافذ لطاعة أي نموذج ينتكس عن الحق، وقد صدق الله إذ يقول: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: 175]. فإذا اتضح هذا عرفنا "معنى الآيات الأخيرة في السياق الخاص والعام، فبعد أن قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 71]، بيَّن أهمية الطاعة التي هي الأمانة، وبيَّن خطورتها، وبعد أن أمر بالتقوى، بيَّن ها هنا أهمية التقوى، وسمَّاها أمانةً، ومن هذا كلّه نعلم صلة المقطع كله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21]."[53]

وبناءً عليه، ختم الله هذا المقطع، ببيان عاقبة النماذج المنحرفة المعادية للحق، بقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: 73]. دلّت الآية على "أن الحكمة من التكليف تعذيب العاصي وإثابة الطائع."[54] ولعل السياق، يوحي بأنَّ نموذج السَّداد، معرض للانتكاس في أداء دوره

[53] حوى، سعيد. **الأساس في التفسير**، القاهرة: دار السلام، ط6، 1424هـ، ج8، ص489.

[54] المرجع سابق، ج8، ص489.

العبادي، إذا تلبس بالظلم والجهل، وفرط في واجبات الحفظ. وهذا التقصير في تحمل المسؤولية، يعد إفصاحاً عن ظلم الإنسان وجهله بمبادئ الشرعة والمنهاج. وعلى الرغم، من أن الإنسان هو الجدير بتوظيف طاقاته المعرفية والطاعة والامتثال، ولكنه بالمقابل قد ينتكس، إذا تلبس بعناصر الظلم والجهل، فيفقد السَّداد في حركته القولية والصلاح في ممارساته العملية، إذا جهل بمتطلبات المنهج، وسقط في الظلم تبعاً للأهواء والدوافع الذاتية. فيجب تسديده للخروج من دائرة الأهواء، والانضباط على خط التقوى، كما تكشف هذه المقاربة عن جسامة هذه الأمانة وثقلها، ومسؤولية التكليف وخطورته في بناء العواقب، ممّا يتطلب ضرورة تقويم الموقف والسلوك عن طريق مبادئ التوبة وتسديدات الخط القويم. خلاصة القول، إنَّ هذه الوظيفة منطلقها الإيمان بالله وضابطها تقوى الله، ومحتواها اتّباع الوحي، ومظهرها طاعة الله ورسوله، ومضمونها القولي الكلمة السَّديدة، والسلوك تحكمه مبادئ الصلاح، ومحو آثار الذنوب المعيقة لمسار المستخلف، كلما تلبس بالظلم والجهل. ولهذا بدأت بالنهي عن إطاعة الكفار والمنافقين، وختمت ببيان عاقبتهم، وفتح مجال التوبة للصنف المسدَّد بالإيمان والتقوى لضرورة تقويم إرادته وحركته كلما ابتعد عن الحق.

رابعاً: الحقل الدلالي القرآني لمفهوم السَّداد

1. معطيات بناء المفهوم في آية النساء:

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٦

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: 1-9].

من أهم المعطيات الواردة في آيات النساء ما يلي:

أ. التناسق بين منظومة القيم ومعطيات الأسرة ومقاصد العمران:

بدأ الله ﷻ السورة بالتركيز على وشيجة الربوبية، التي تتحرك في فلكها جميع الدوائر الإنسانية. وتكمن نقطة الاستمداد في مركزية التوحيد، ومنه تنبثق القيم المؤطرة للوجود، والمسدّدة للحركة الإنسانية. هذا يستلزم بناء التصور الصحيح حول مفهوم الأسرة، الثابت في بنيته ومكوناته، ولا يتصور بناء الأسرة خارج هذا السياق. فإذا كان الله مصدر الوجود، فإنَّ جميع العلائق يجب أن تتصالح مع مصدر وجودها (الله). والتّسديد المقصود، يتمثل في بناء الأسرة في سياق التوحيد. ولهذا وضع القواعد الناظمة لها. واستهل السورة بخطاب للإنسانية للتأكيد على البعد الغيبي للوجود، وأهمية الأسرة التي تقيم أسس العمران على مبدأ التقوى ومقصد التراحم الإنساني.

ب. التأكيد على مبدأ الزوجية في سياق وحدة النَّفس:

وضع القرآن الكريم الأصول الناظمة للأسرة ومتطلبات المنهج للعمارة الكونية، واستهل الخطاب بالأسرة الآدمية، لأنها الصيغة الكونية التي انتقاها القرآن لحفظ مقاصد الوجود. ويتم هذا الاجتماع في إطار التقوى، التي تحفظ مقصد التراحم الأسري. ومن هنا، تصبح جميع الأداءات العبادية، تتم عبر هذه الثنائية التي تنتج عنها الكثرة، بما يحقق مقاصد العمران. فقد أقام الله هذا البناء على التوحيد، بهدف التأكيد على مركزية الحق، وشكلت الرابطة الأسرية مدخلاً مفتاحياً لتثبيت الحقوق المالية في إطار هذا النسق التوحيدي. فإن كان الشأن الأسري يقوم على مقصد التراحم، فإن الحقوق المالية وردت مؤطرة بنصوص محكمة، تؤكد على التكامل في التشريع، خاصة وأنَّ الزواج ينسج شبكة واسعة من العلاقات، وتنتظم في إطار المبدأ الأخلاقي المؤطر لجميع العلائق، انطلاقاً من

الأسرة بوصفها نواة للبناء المجتمعي. فبعدما سدَّد القرآن الأسرة بالتوحيد والتقوى. جاءت هذه التوجيهات لضبط الحقوق المالية داخل الإطار الأسري والمجتمعي. وجمع الله بين تقوى الله وتقوى الرحم للدلالة على عناية الله بالأسرة، بما يفترض أن يحسنوا تخلقاً بالحق. ومن هذا المقصد التراحمي تمتد آفاق الرحمة للاجتماع الإنساني.

افتتح الله السورة، بخطاب جامع للتأكيد على خصائص الإنسانية الواحدة، وصياغة المشترك الجامع على مستوى الخلق، فالله هو مصدر الخلق، ومن آدم جاءت الكثرة التي تتواصل من خلال القيم المؤطرة لجميع الأنساق العمرانية. وأعاد القرآن بناء الأسرة في ضوء هذا السياق الكوني، للتأكيد على المنطلق التوحيدي للأسرة. وقد تحدث عن الميلاد الإنساني من خلال الأسرة، وختمها بالحديث عن متعلقاتها (الإرث)، ممَّا يعطي مؤشراً أن البناء العام للسورة يدور حول الأسرة، ومتعلقاتها المادية والمعنوية. وتتخللها موضوعات ذات علاقة بها. وبناءً عليه، فإن الخطاب يركز على الدعائم الآتية: الله هو مصدر الوجود، والتقوى هي القيمة المؤطرة للعلاقة السَّديدة بين الله والإنسان، وإقامة الأسرة على دعائم الشرعة والمنهاج. وإن كانت التقوى هنا، موجهة للإنسانية أن تتقي ربها بوصفه رباً وخالقاً، وتقوى الأرحام لما تمثله من قيمة محورية. فهذا يفيدنا أن التقوى تؤطر العلاقة بيننا وبين الله، والأسرة تنضبط قواعدها بقيمة التقوى والرحمة. وفي سياق مقصد الرحمة تعالج القضايا الأسرية، بهدف تطوير الوعي بأبعاد هذا التراحم، ولهذا بدأ بوشيجة الربوبية، ثم شفع بوصلة الرحم، فإذا كان المقطع دلالة على إحسان الله وتربيته للخلق، فإن تكرار لفظ التقوى في سياق الأرحام، مؤشر على الهيبة من الله بعدم قطع هذا التواصل الرحمي، وتجسيده في واقع الضعفاء مع خشية الله في جميع أبنيتهم المادية والمعنوية، حتى تبدو الرحمة مقصداً كليّاً في الأنساق المجتمعية. وفي هذا الإطار وضع جملةً من المؤشرات للتعامل مع الأيتام هي:

1. دفع أموال اليتيم عند مؤانسة الرشد لإثبات الكينونة المالية للأيتام.

2. المحافظة على أموالهم في حالة المخالطة والشراكة المالية، والنهي عن الاعتداء عليها.

3. النهي عن استبدال الخبيث بالطيب، للتأكيد على مصدر المال (الحلال) لحفظ الأيتام من جميع عناصر الإفساد، وجاء الخطاب بصيغة أمر ونهي؛ أمر بإتيان المال للأيتام، ونهي عن تبديل الخبيث بالطيب، أو أكلها بالمخالطة.

4. أمر باختبار الأيتام (ضبط التصرف بالرُّشد)، حتى تدفع إليهم أموالهم، ونهى الأوصياء عن أكل أموالهم بالإسراف أو استهلاكها بالمبادرة، وطالبهم بالعفة إن كانوا أغنياء، والأكل قدر الضرورة إن كانوا فقراء. والإشهاد عند التسليم. وبعدما ضبط القوة المالية للضعفاء على مقتضى الحكمة، جعل عُدةَ الخشية على مصير الضعفاء مرهوناً بتقوى الله فيهم، وتسديدهم للحق.

ت. إثبات الحقوق المالية للضعفاء وتوثقتها بالقيم لمعرفة مردود السعي المجتمعي:

أقام القرآن الأسرة على وشيجة الربوبية، وبهذا تصبح الدائرة الإلهية هي نقطة المركز في بناء العلاقات، ثم تأتي دائرة النفس الواحدة، وبعدها الدائرة الزوجية. بدأ بدائرة الأيتام، ثم شفع بالنساء والسفهاء، وختم بدائرة القرابة. إن ترتيب هذه الدوائر له أهمية مميزة، فلا بدّ من استظهار التعالق بين هذه الفئات المجتمعية، انطلاقاً ممّا قرره القرآن الكريم، فقد دعا إلى إعطاء النساء مهورهن، وإيتاء اليتامى أموالهم. وهنا يبرز العنصر المشترك بينهما من زاويتين: إيتاء كل منهما حقه، وهذا يعني إثبات الحق المالي لكليهما. وإن اختلفت جهة الإعطاء، فإن الهدف نفسه، والسِّمة الجامعة بينهما هي الضعف، وكلاهما تحت ولاية ما؛ فأمّا الأيتام، فإن الوصي هو المسؤول، والزوج هو القوّام على المرأة. هذا يؤكد على تقنين القرآن لهذا الحق، وهو مسؤولية مجتمعية، بحماية الحقوق المكفولة للأيتام والنساء. ثم يأتي السفهاء فيدخلون في دائرة المنع، والجواب يعكس السياسة الأخلاقية للقرآن في حفظ مقصد المال، ولعل النقطة الجوهرية التي تبرز التعالق بينهما، هي أن اليتيم يختبر للوقوف على مستوى الرشد حتى يدفع له المال، والسَّفيه يفتقد للآلية المعرفية التي تضبط مستوى الرُّشد، فتحفظ أمواله ويؤتى بمقدار الحاجة. وبناء عليه، فإن القرآن تحدث عن كليهما في سياق الحقوق المالية، وإن اختلفا في الصيغة، تحدّث عن الأيتام في سياق الإعطاء، والسفهاء في سياق المنع، وفي كلتا الحالتين

الخطاب موجه للأوصياء بإعطاء المال للأيتام بشرط الرُّشد، ومنع السفهاء لغياب ذات الشرط.

ومن هنا، فإن كان الجامع بين هذه الصور هو إثبات الحقوق، فإن هناك رابطاً فكرياً يجمع بينهما وهو الحماية المجتمعية، بحكم الضعف الذي يكتنفهم. ثم تحدّث عن قضية مهمة (الإرث) في الأنساق المجتمعية، فقد أعاد تأطيره في سياق تقرير مبدأ المساواة لكلا الطرفين. ولم تعد الذكورة مقياساً للتوارث، كما أعاد ضبط المقاصد المالية في ضوء القيم، بما يتجاوز ضيق الأفق الجاهلي، ومن ثم، إعادة التوازن لجميع الفئات المجتمعية. هنا يجب أن نؤكد أن الله أعاد تسديد المقدّرات المالية لهذه الفئات، والقصد من ذلك المساهمة في تنمية النسيج المجتمعي، وضبطه وفق قواعد أخلاقية راسخة. ومن الجدير بالملاحظة، أن القرآن أكّد على التراحم الأسري عبر الدعوة إلى ضم الأقارب (الفقراء والمساكين) في إطار الصدقات، وتم إدخال هذه الفئة في دائرة الإحسان، بهدف تقوية النسيج الأسري وإحكام بنيانه. وللربط بين دلالات المعنى الجامع لهذه الفئات، لا بدّ من التأكيد على وحدة الهدف (إثبات الحقوق)، وحاجة الضعفاء للحماية المجتمعية. ويتجلى السَّداد على مستويين، أحدهما معنوي، ويتمثل في تسديد جميع العلائق الإنسانية، انطلاقاً من العلاقة الزوجية، الأسرية، والمجتمعية، ومما يلاحظ أن القرآن، يؤكد أن مقصد التراحم ركيزة في بنائية العلاقات. ثم يؤكد السياق، أن الدائرة المجتمعية تتمحور أهدافها حول حماية الفئات المستضعفة في سياق قيمي (القسط، المعروف، الرشد، الاستعفاف، الإحسان)، وهذا تسديد نحو جهاز القيم لبناء النسيج المجتمعي. وأما المستوى المادي، فقد ضبط الحقوق المالية، وسدَّد مستحقات الفئات المجتمعية بهدف بناء منظومة حقوقية مُحكمة.

2. معطيات بناء المفهوم في آيات الأحزاب: من أهم المعطيات التي نرصدها ما يلي:

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: 70].

أ. علاقة السَّداد بالإيمان ومعرفة الإنسان السَّديد في ضوء آيات الأحزاب:

إن ما توصلت إليه الدراسة اللغوية، يعضده ما جاء في السياق، وهذا سوف يساعدنا على محاولة الكشف عن معطيات المفهوم، ربطاً بأصله اللغوي، واستمداداً ممّا ورد في القرآن، بهدف الوقوف على الخصائص المميزة للإنسان السَّديد، وما علاقة السَّداد بالإيمان والتقوى؟ نعتقد أن هذه التساؤلات مهمة جداً بالقدر الذي يدفع عجلة بحثنا للإجابة عنها، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب:70]، هنا يتوجب علينا، أن نقدّم تعريفاً سياقياً للإنسان السَّديد، هو المستقيم في الكينونة الداخلية والخارجية، المحكوم بضوابط التقوى، المتوجه في إرادته وحركاته نحو متطلبات الإيمان، ومقاصد العمران في ضوء محدّدات الشرعة والمنهاج. وفي هذا السياق، يقول الطباطبائي: "ما يجتمع فيه مطابقة الواقع."[55] هذا يعني أن المسدِّد: هو الذي يمتلك "القدرة على التوسُّل إلى المقصد النافع بالسبب الناجع."[56] وإنْ جمع بينهما، تحصل له المطابقة بين القول والواقع. تقدم الآيات مفتاحاً مهماً في معرفة طبيعة السلوك السَّديد، فهو ذلك الإنسان الذي يطابق قوله فعله، بما يوحي بأنه شخصية متوازنة قولاً وفعلاً. ويستمدُّ من عنصر الإيمان، فهو الدافع عليه؛ إذ يثمر القول السَّديد وصلاح الأعمال. وبناءً عليه، يصبح الإيمان حركةً فاعلة في ضبط الإنسان، وتتعدى آثاره إلى مردود الخلود. وبهذا تصبح الكلمة منتجة للحق، ومسدِّدة للوجهة والمقصد.

إنّ هذه التربية القولية، تعكس ضرورة ممارسة الصيانة الأخلاقية على مقدرات الكلمة. فلا يكون القول سديداً، حتى يتم تأسيس الفعل المعرفي على الإيمان. وتغدو التزكية القولية، مرتبطة بمفهوم العلم، لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: 129]. فإن كان صلاح الكلمة، مرهوناً بصلاح الداخل، هذا يعني أنَّه لا يمكن إخضاع اللسان لمبدأ التربية، قبل إخضاع القلب لجوهر هذه التربية. ومن ثمّ، فقد أعاد القرآن إرساء معادلة السلوك الصحيح، وتتبلور عبر التفاعل الجوهري بين الإيمان والتقوى، ومقتضيات السَّداد القولي، والصلاح العملي. هذا ما نوضحه في الشكل الآتي:

---

[55] الطباطبائي، محمد حسين. **الميزان في تفسير القرآن الكريم**، بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1997م، ج22، ص353.

[56] عبد الرحمن، **سؤال الأخلاق**، مرجع سابق، ص75.

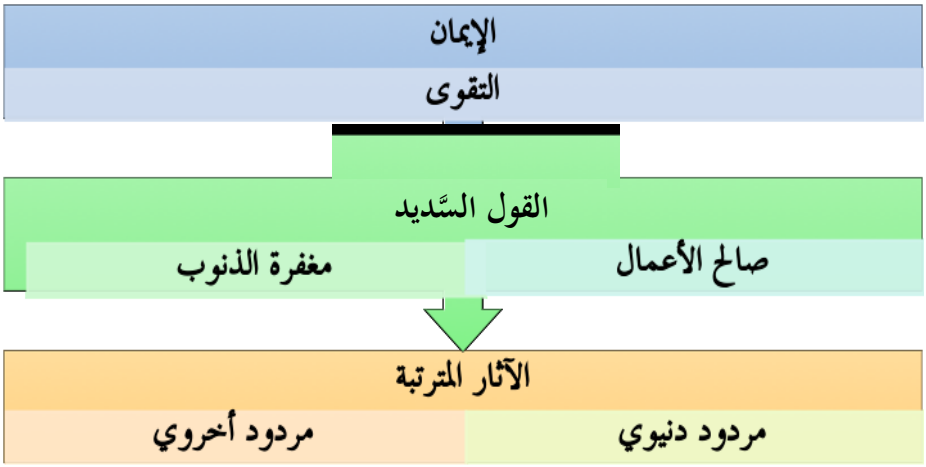

وبناءً عليه، فإنَّ الإيمان هو عصارة المقاصد الربانية، التي تحدّد قبلة المسدَّد، ومعرفة الطريق أمر في غاية الأهمية، لأنه لا يكفي القصد، وإنّما يتوجب عليه معرفة الاتجاه المسدَّد إليه. لهذا يركز ﷻ على السلامة القلبية في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11]، وتوظيف جهاز الإبصار الذي يعطي الإضاءة الضرورية لإصلاح مفردات الخطاب. وتتجلى قيّمة الكلمة، بما تنسجه من علاقات تعيد بناء الوعي، وتعزز مقدرات الاستخلاف. فتتحول طاقة الكلمة إلى وسيلة بنائية، تؤكد الحق وتصون العدل، وتسدِّد الوجهة، وتحقق المقصد، وتدرأ الباطل، وتحارب جميع الانحرافات القولية. وتتعزز قيمة المسؤولية، كلما انتبه الإنسان إلى خطورة الكلمة على مستوى الفكر والسلوك، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: 02]. ومن هنا، يتجلى لنا أن المضمون الرئيس لمفهوم السَّداد هو الإيمان الذي يتخذ منه المسلم قاعدة لمنطلقات الحياة في جميع أبعادها، وهو الذي يضفي القيمة الأخلاقية على مردود الكلمات حتى تتسدَّد في طريق البناء والإنجاز في المجتمع الإنساني.

ب. تعالقات السَّداد مع التقوى، ومقصدية الكلمة من الزاوية الأخلاقية:

إنَّ تركيز القرآن على سداد الكلمة، يعني التنبيه إلى خطورة هذه الطاقة الوظيفية، ودورها في بناء الحياة أو تهديمها، بما يتطلب إعادة تشغيل جهاز المراقبة لضمان سلامة

الكلمة، لقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: 26]. وبناءً عليه، "فعل الأوامر وترك النواهي تقوى، فإنه وضع أسباباً للمسببات، وربط حصول المسببات بها، وحث على فعل الأسباب، وبذلك كان فعل الأسباب ليحصل الإنسان المسببات تقوى. ومن هنا، يظهر أن السير في الحياة على ما وضع الله فيها من سنن التقوى، وأنَّ التقوى ليست خاصةً بنوع من الطاعات ولا بشيء من المظاهر، وإنما هي اتقاء الإنسان كلما يضره في نفسه وفي جنسه."[57]

يهدف الخطاب إلى تنمية البعد الجمالي، وإضفاء القيمة على الكلمات، وتوجيهها نحو السَّداد. ووفقاً لهذا الرأي، فإن اللسان هو المسؤول عن ضبط مسار الكلمة. لما يترتب عليها من حصاد الآخرة. يظهر على نحو جلي، أن الكلمة لها دلالات فكرية، وأخلاقية، وليست حركة عبثية بمقدرات التفكير، وهنا يظهر بوضوح مقصدية الكلمة من الوجهة الأخلاقية، وارتباطها بالقيم؛ إذ لا يعقل أن يكون القول سديداً، والسلوك معطوباً، وعليه، فإنَّ "أحد مقتضيات مجال التداول الإسلامي هو أن القول فيه لا ينفك عن الفعل، حتى إن الفعل يصير ميزاناً يوزن به القول، صدقاً ونفعاً."[58] ومن ثم، ركز القرآن على الكلمة المثمرة في قوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 25]، وتتحدَّد أهميتها في ضوء الباعث والهدف. وبهذا يقع القول السَّديد بين قوتين حاميتين هما: القصد، والهدف، كما يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

وفي خطوة إضافية، فإنَّ الكلام هو رسالة تواصلية بين المرسل والمرسل إليه، يؤدي وظيفة اجتماعية هادفة، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24]. فأما الكلمة الطيّبة، فهي القائمة على مبدأ الإيمان، وتحمل طاقة بنائية، مسدَّدة نحو الصلاح، تتجلى آثارها في قوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: 99]، ومن ثم، تم ضبط القول بآلية التدبر لتنمية وعي المسدِّد لقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: 68]، وتنمية الحس الخلقي عبر آلية الإحسان، لقوله: ﴿وَقُولُواْ

[57] شلتوت، محمود. **تفسير القرآن الكريم**، القاهرة: دار الشروق، ط12، 1424هـ، 2004م، ص432.

[58] عبد الرحمن، طه. **من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر**، بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1، 2016م، ص174.

لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: 83]. يظهر على نحو واضح، أن الإيمان هو مصدر جميع الكمالات، ولهذا يسعى القرآن إلى إعادة بلورة الشخصية السَّديدة في ضوء الإيمان والتقوى. هذا يعني أنَّ القول السَّديد هو نتيجة طبيعية للعلاقة الصميمة بين الإيمان والتقوى، ممّا يعطي مؤشراً، أن الكلمة المفتاحية التي تؤدي الدور الأكثر أهمية في تسديد الكلمة هي التقوى. من الواضح أن هناك علاقة وثيقة بين القلب واللسان، والاستقامة هي الكلمة التي تحكم هذه العلاقة الثنائية. ومن ثم، فإن القرآن ينظر إليها من زاوية السَّداد، وتحقيق التواصل بين القلب واللسان. من جهة أخرى، تحتل التقوى أهمية كبيرة بوصفها من الكلمات المحورية في بناء مفهوم السَّداد، ممّا يعني أن المؤمن بامتلاكه لهذه الخاصية، يكون قد هيّأ الأساس الذي يبنى عليه القول السَّديد. وعلى نحو مفيد، نلاحظ أن من أقوى الثنائيات فاعلية، هي ثنائية الإيمان والعمل؛ بل إن الأعمال الصالحة ليست سوى مردود الإيمان في الواقع لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [البقرة: 82]. ومن الوجهة السياقية، فإن الأعمال الصالحة منبعها تقوى الله، لقوله جلّ شأنه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [الأحزاب: 70-71].

ت. علاقة النماذج المطروحة بمفهوم السَّداد في ضوء آيات الأحزاب:

تحدثت بداية السورة عن بعض المفاهيم التي تشكل مفصلاً مهماً في السياق، ولها علاقة بالسَّداد، منها: الكفار، والمنافقون، والمؤمنون، والطاعة، ولعل الآية التي تمثل عصب السّورة، وتبنى في ضوئها العلاقات والمواقف هي قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4]. أشارت الآيات إلى النماذج المنحرفة عن خط السَّداد، وهم: الكفار، والمنافقون، وبنو إسرائيل، وانتخب القرآن النموذج المؤمن لتمثّل حقائق الشرعة والمنهاج. وأعاد تأطير أنساقه وفق مرجعية ثابتة لتجسيد معطيات السَّداد في المجتمع الإنساني، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: 2]. أما اليهود، فقد تحدث عنهم في سياق المثل، وقدّمهم في صورة النموذج؛ الذي تستبد به نزعة الاعتداء تجاه أنبياء الله. فهذا نموذج فقد اتصاله السَّديد مع الله، وقيمه المؤطرة لحركة السَّداد في الأرض. وإن كان يشترك مع نموذج الكفر والنفاق في الصبغة الانحرافية. ويتسم كل نموذج بسمات مختلفة. وقد نهى القرآن في مطلع السورة عن إطاعة الكفار والمنافقين. فأما الكافر فهو جاحد بالحق، ونموذج أبتر غير موصول بالتوحيد، ونواة هذا المفتاح قوله ﷻ:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 1]، بمعنى أنه لم يسلم وجوده لله، ولم يخضع له، ولم يتسدَّد عقدياً، ولا تشريعياً بضوابط الشرعة والمنهاج. ومردود سعيه لا قيمة له في ميزان الحق لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور: 39].

إنَّ هذا الصنف يفتقد للسداد التوحيدي، برفضه اتّباع سبيل الهدى، وعدم استثمار الاستعدادات الفطرية وأجهزة المعرفة وفق متطلبات المنهاج. لم يستقم باطنه على الإيمان، وظاهره على مقتضيات الشرع. فمن أين يستمد النور الذي يتسدَّد به، إذا كان الإيمان بالله هو مفتاح السَّداد والصلاح؟ ولعل ما يثير الاهتمام، أن الخطاب جاء بصيغة النداء. "يشير أن ما سيدعو الله إليه نبيه أمر بالغ الأهمية وكلمة النبي بدل رسول الله إيماءة إلى إنبائه بأمور ذات شأن."[59] وأما المنافق، فقد تلبّس بالحق ظاهراً، وكفر به باطناً، ونظراً لخطورة الكفر والنفاق، فقد حذّر منهما في المطلع، وبيّن مصيرهم في الختام في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: 73]. أفصح الله في غزوة الأحزاب عن دور النفاق، مركزاً على خصائص هذا النموذج؛ الذي فقد السَّداد على خط التوحيد والعمل، لأن الإيمان ينتهي عند المنافق على مستوى القول، يدعي السَّداد على مبدأ التوحيد ظاهرياً، فلا قيمة لأقواله وأفعاله، لما تلبّس به من الكذب. وطرح جملة من المؤشرات على فقدانه السَّداد العقدي منها قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: 41].

وأما غياب السَّداد القولي، فقد ذكره في قوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب: 12]. وهذا غير صائب، لأن الله ورسوله لا يَعِدُ إلّا صدقاً. والصدق هو السَّداد بعينه. وقد سدّد القرآن هذه الأقوال بردها للحق، فكذّبهم بأن بيوتهم ليست بعورة، وبالنسبة للسلوك، فقد عاهدوا الله بعدم تولّي الأدبار، ولكنهم خانوا، فلم يسدّدوا عهدهم، فجاء قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ [الأحزاب: 15]. وإذا كان السَّداد يعني موافقة الظاهر للباطن، فإن

[59] أبو موسى، **من أسرار التعبير القرآني**، مرجع سابق، ص6.

فكرة النفاق تقوم على مناقضة صريحة بين بواطنهم وما يلفظونه، فوصفهم الله بهذا التناقض الصارخ بين كينونتهم الداخلية وتمظهراتهم السلوكية. إنَّ هذه النماذج هي أنماط مضللة عن السَّداد. ومن المفيد القول، بأن القرآن قد طرح بديلاً أخلاقياً، يختلف في مضامينه الفكرية والسلوكية على النماذج السابقة. يعتمد في وجوده على الوحي، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: 02]، وقد فسَّر السَّداد بالتوحيد، وكلمة الإخلاص، وقد اتخذ هذا النموذج من الإيمان مرجعية له، تضبط القول، وتصوب السلوك، وتتحكم في بناء المواقف، فكلها تنطلق من التوحيد، وتتم في إطار تقوى الله، ومن ثم، السعي بالسَّداد والصلاح في الحياة، ونبذ الفساد والظلم.

ومن مؤشرات تقوى الله اتّباع الوحي، التوكل على الله، وتسدّيد حركة القول وإصلاح العمل، وتجديد عنصر التوبة، كلما انحرف الإنسان عن معطيات الاتّباع. ويتجلى سداد القول عند المؤمنين في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۖ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ [الأحزاب: 22]. وحكم الله على صدقهم في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: 23]، وقد أوضحت الآيات مصائر هذه النماذج المتباينة، فأما الصنف المؤمن؛ نموذج السَّداد فقد أثنى الله عليه بالصدق لموافقته الحق ظاهراً وباطناً، وأما الصنف المنافق فيرد إلى مشيئة الله، لقوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأحزاب: 24]، وأهل الكتاب، قال فيهم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ٢٦﴾ [الأحزاب: 26].

ث. تسديد وجهة القلب، ومسؤوليته في بناء المواقف، وتوجيه مقاصد الكلام والسلوك:

قرّر القرآن مبدأً أخلاقياً في غاية الأهمية، يتجسد في تسديد وجهة القلب المفطور على التوحيد، ومنه ينبثق سداد الأقوال والأفعال. إن القلب المراد لله هو الذي يتوخى

وجهةً واحدةً، وينبذ تعدد الوجهات، وهو ما يسمى بالوحدة القلبية (وحدة المشاعر)، وهذه ضرورية جداً في بناء التوجهات الإيمانية، وتوجيه مفردات الحياة، لقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4]. فإما أن يكون محلاً لإرادة الله، وإمّا للآخرين. ولهذا يدعو الإنسان إلى بذل جهده لتنقية القلب من الازدواجية، وتوجيه الإرادة ابتغاء وجه الله لقوله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: 20]. وعليه، فإن المطلوب نفي أي ازدواجية تجعل الإنسان لا يتبصر الحق، ولهذا جاء السياق، للتأكيد على توجيه الإرادة باتجاه الوحدة، ومعالجة بعض الظواهر المتأصلة في الجاهلية مثل الظِّهار والتّبني، وذلك بتطبيق هذا المبدأ الذي يحكم مفاصل السورة، ويوجه أحكامها ومواقفها. وأول مقرراتها إلغاء العادات الجاهلية، فقد كانوا ينزلون الزوجة منزلة الأم، ويجعلونها عليهم كظهر الأم، وينزلون الابن المتبنّى منزلة البنوة الحقيقية.

من الجدير بالملاحظة، أنَّ القرآن يستند على مبدأ الوحدة، ونفي الازدواجية في جميع القضايا، فإذا كان "هناك قانون يضبط القوة بتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة، ويقابله في الإنسان قانون مثله لا بدّ من ضبط معاني الإنسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال."[60] هذا يعني أن القرآن، يعيد بناء السَّداد التشريعي عند قوم أَلِفوا التعددية الشِّركية، وتأثيراتها في بناء الفعل الأخلاقي. إن بناء الأحكام التشريعية في مسألة الظّهار والتّبني، تعتمد على طبيعة المعالجة القرآنية لواقع يعج بالتناقضات، وأساس هذه المعالجة، تسدّيد الظواهر المجتمعية في إطار مبدأ التوحيد؛ فأمّا الظّهار أن يحلف الرجل على زوجته، أنها عليه كظهر أمه، والتّبني ادعاء بنوة غير حقيقية، وقد وضع القرآن مفارقات بينهما. فليس من المنطق السَّديد أن يضع الرجل زوجته مكان أمه، ولا المتبنّى موضع الابن. وأن يكون القلب وعاءً لهذا التعدد الذي أفرزته الوثنية. نفى القرآن مبدأ الازدواجية في التعامل مع الله، كذلك المرأة إمّا تكون أُمّاً أو زوجةً، ولا يمكن بأي حال أن تكون الزوجة في موضع الأم، فهذا طبيعة المنطق الفاسد، الذي لا يقوم على مرجعية الحق. كذلك المتبنى يستحيل أن يكون ابناً، وإن ألحق بأبوة ما. فإمّا أن يكون ابناً صلبياً أو متبنى. وبناءً عليه، فإن هذا المنطق، يتنافى تماماً مع مبدأ السَّداد القائم على مبدأ

[60] الرافعي، محمد صادق. **وحي القلم**، القاهرة: دار ابن الهيثم، 2007م، ج3، ص67.

الوحدانية، ويرفض التعدد الذي يبدد المقصد والوجهة. إن التوحيد يسري في كل الحقائق، وتتأثر به جميع العلاقات. فإما طاعة الله ورسوله، أو طاعة الكفار والمنافقين، ولهذا حذر القرآن النبي بذاته من مجانبة السَّداد بالركون لهذه النماذج المنحرفة عن المبدأ التوحيدي، نظراً لمنطق الازدواجية الشِّركية الذي يحكمهم (الله والأنداد) وأهل النفاق (الظاهر مع الله والباطن مع الكفر). المبدأ ذاته يحكم معادلة الأسرة النبوية، فإمَّا يختر الله ورسوله والآخرة أو الدنيا وزينتها (الدنيا والآخرة)، بهدف تأطير الهدف العبادي للأسرة النموذج.

وإذا كان الإيمان هو المبدأ الذي تقوم عليه الأسرة، فقد ألغى القرآن أن يكون الدافع لتشكيلها هو الإمتاع الدنيوي. ولهذا كان الخطاب موجهاً للنبي للدلالة على واجبات النبوة الحاكمة بضوابطها المسدِّدة للشأن الأسري. وأما النموذج المؤمن، فقد اتخذ منه القرآن مقاربة تسديدية، لما ينبغي أن يكون عليه في الواقع أمام اختبارات الابتلاء، إذا تعلّق الأمر بالرسالة والمبدأ. ومدى ثباتهم على الإيمان، والتضحية بالنفس والمال. وعلى نحو دقيق، يبدو لنا أن الاختبار هنا تجاوز المعطى النظري، بحثاً عن معطى العمل في معركة، تغدو حاسمة بالنسبة للمؤمنين. وما تنطوي عليه النفوس من فكرة السَّداد لما يتعلق الأمر بالميدان. ولهذا ذكرهم بنعمة المدد لموازنات المعركة. هذا الإمداد عنصر كافٍ جداً، بعد تقوى الله والتوكل عليه لضبط الانفعالات، والقناعات الفكرية في واقع الصحابة.

إنَّ فكرة السَّداد تنطوي على دلالات، تستوجب النظر بين قوة الخالق وقوة المخلوقين بالنسبة للمؤمن، فقد سدّده الله بهذه التوجيهات وقدم ضمانات النصر، فكيف تهتز النفوس لمجرد رؤية الأحزاب مجتمعة؟ لقد خضع نموذج السَّداد للاختبار لمعرفة مدى ثباته على المبدأ، وقياس درجة هذا الوثوق، وقدم سلسلة من الأوامر لتفعيل عنصر السدّاد، منها: الإيمان، التقوى، اتّباع الوحي، التوكل على الله، ثم النعمة عليهم بهذا الإمداد الغيبي، وكل هذا تحصين للدوافع النفسية من الاهتزاز. من الضروري القول، بأن هذه الصور(زيغ الأبصار، بلوغ القلوب الحناجر)، تعكس مستويات فقدان السَّداد النفسي. لم يجر هذه المقابلة إلّا ليعكس ثبات هذا النموذج، رغم ما تلبس ضعاف النفوس من دواعي الخوف. كما يبدو أنَّ الله أراد التأكيد على المضمون الدلالي لمفهوم

النعمة. وما تقتضيه من وصلة بالحق. بالنظر في تسدِّيدات القرآن لهذا النموذج على المستوى النظري والعملي، نلاحظ أنّه سدَّد القصود الذاتية، ثم انتقل إلى تسديد العمل الذي تنتظم به جهود البناء. إنَّ القرآن يهدف إلى تفعيل آليات السَّداد العملي، لذا أدخل هذه الفكرة في توجيه الإيمان وترسيخ اليقين في النفوس. والتذكير بدلالات القوة الإلهية، يفصح بأن القرآن يدير المعركة مع الشخصية المؤمنة حتى تتوازن، ومن ثم، يتسدَّد الجهد في مقاومة العدو، وصدِّ هذا الحشد بقوة الله، ولكن التدخل الإلهي مشروط بجهد الإنسان وفاعليته في الميدان.

ج. مواصفات نموذج السَّداد في ضوء سورة الأحزاب:

إنَّ المتأمل في البديل الأخلاقي، يلاحظ أن الله طالب المؤمنين بمفارقة سلوك اليهود في صيغة التعامل اللفظي مع أنبياء الله، فهم "إرساء إلهي لنمط خاص من العلاقة (التكليمية) بين السماء والأرض حجة بالأنبياء على النّاس، ومعجزة في أنفس الأنبياء وتثبيتاً ليقينهم، وإعادة تدريبهم وتأهيلهم لرفع كفاءة أدائهم لأنواع خاصة من المهمات الرسالية."[61] هذا يعكس رفعة الخطاب في توجيه نموذج السَّداد الكوني، فقد دفع به القرآن إلى عجلة التاريخ والحركة السَّوية، والإنتاج في ساحة الفعل الحضاري. إن هذا الكلام، يقودنا إلى ضرورة تربية الإنسان على مقتضى التوحيد، فهو جوهر السلام، ويستقيم على معطيات الاتبّاع، وتقويم إرادته وحركاته نحو مقاصد الدين، والسعي بالسلم مع جميع الأنساق المجتمعية، بتوخي خاصية التَّسديد في منطلقات التفكير، ومردود الكلمات، وإصلاح السلوك، والبراءة من مواقعة الظلم، وتوظيف القوة المعنوية والمادية في الحق، وإصابة القصد؛ لأن المبادرات قد تنجح على مستوى إدراك المقاصد وتخونها الأسباب، فيدخل الفعل دائرة الخلل، فلا بدّ أن يُسَدَّ بتقويم إرادة الإنسان، وتسديد أقواله حتى تصلح أعماله. ومن ينهج السَّداد لا يحقق الفوز العظيم فقط؛ بل يجبُر الله خلل أفعاله ويصلح أعماله، ويغفر ذنوبه ويدخل في طاعة الله ورسوله. وفي هذا التأكيد، حرص على إبراز سمات الشخصية السَّديدة في منظور القرآن. هذا يعني أنَّ استهداف الشخصية بالأذى، ليس سوى اعتداء على الخصوصية الإنسانية. ولهذا حرص الخطاب

[61] عبد الرحمن، طه. **من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر**، مرجع سابق، ص26.

على تسدِّيد الكلمة في مقصدها وغايتها. وحذّر من الجهل بعواقب هذه المسؤولية العبادية، عندما تنحرف الكلمة عن مقصد الاستخلاف، مشيراً إلى سمتين سلبيتين للدلالة على انحراف مسار التفكير والعمل، وهما: الظلم والجهل، ودورهما في فقدان الوجهة السَّديدة؛ ذلك أنَّ الجهل بمبادئ الحق، يبدد جهود الخلافة، والظلم طغيان في حركة الفعل. والعدل والعلم من أبرز مقومات الفعل السَّديد، وهذا يتطلب تقويم جهود المستخلف القولية والفعلية، وبرمجة العقل على السداد، وهذا يدخل في صميم السلوك العِبادي.

خاتمة:

عالج البحث بعض الأفكار المهمة، منها: دعوة القرآن إلى ضرورة بناء القول والفعل وفق مؤطرات قيمية، بقصد إرساء قواعد السلوك السَّديد، بما يوحي بضرورة تربية اللسان حتى يثمر إصلاح الكينونة الداخلية، ومعالجة الأعطاب الخارجية. وإذا كان التَّسديد: هو تقويم الإرادة، وتوجيه حركاتها نحو المقاصد القرآنية. فإن آية النساء، أعادت تسديد المنظومة الأسرية، وآية الأحزاب سدَّدت المنظومة المجتمعية، بتقديم البديل الأخلاقي. ومن هنا، فإننا حاولنا التأكيد على السمات الرئيسية للنموذج السَّديد، والنماذج المنحرفة التي أخفقت في بناء علاقة مع الله. فأما بنو إسرائيل، فقد كانوا مضرب المثل في أذية رسل الله، ففقدوا التواصل السديد مع الله، وأما الكفار فهم نموذج أبتر غير موصول بالله ومنهجه، ويبقى النفاق أكثر خطورةً على المستوى الديني، لكونه يتلبّس بالحق في الظاهر، ويخونه في الباطن. وإذا كان النموذج السَّديد بمثل هذه المواصفات، بخلاف الطرح النمطي لهذا المفهوم، فإن ما كشفت عنه الدراسة السياقية، يؤكد أن السَّداد هو كلمة مفتاحية في بنية الوجود، ويزيد في أهميته أنه من المفاهيم الساعية إلى إعادة تشكيل المنظومة القولية والفعلية، واستثمارها في المقاصد النافعة. فلا قيمة للعلم إذا لم يشفع بتزكية في مقدراته المعرفية. وقد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1. حصر مفهوم السَّداد في العدل في الوصية وعدم الإسراف فيها، في هذا القول تضييق للمصطلح، لأن الفضاء المعرفي، يتسع لأكثر من هذا المعنى. ويحذر الله الآباء من

التقصير بتركهم ذرية ضعافاً في معرفتهم بالمنهج والشِّرعة، وعُدة الخشية تقوى الله، والتزام الصدق بالقول السَّديد.

2. السَّداد في آية النساء: هو إقامة التقوى في حياة الأبناء، والسعي بهم بالصدق، تسديداً بما يحقق مقاصد العبادة والإيمان. وتعدُّ هذه الآية نقلة فارقة في مستويات الخطاب القرآني، بتأطير حقوق الضعفاء في سياق قيمي، تحكمه التقوى وتسديد مستقبل الأبناء نحو مقاصد الشِّرعة، حتى لا يضعفوا في الحق.

3. السَّداد في آية الأحزاب: هو تربية الجوهر بالتقوى، واللسان بالمنطق السَّديد، والسعي للعمل بالصلاح وسد الخلل بالتوبة، بما يحقق مقتضيات العمران، ومتطلبات التكليف.

4. تتجلى مقومات النموذج السَّديد في مداخل مفتاحية مهمة: مفتاح الإيمان يجسد الإرادة التوحيدية، ومفتاح التفكير هو المنطق السَّديد، والسلامة اللفظية من الآفات اللسانية، ومفتاح الجوارح هو العمل الصالح، ومفتاح الخلل هو التوبة، ومفتاح الاتّباع طاعة الله ورسوله، ومفتاح الأمانة والتكليف العلم والعدل.

5. إسقاط جميع النماذج المنحرفة في مضامينها الروحية والأخلاقية، بمقتضى فقدان الوصلة التوحيدية بالله، وضوابط الشِّرعة والمنهاج.

وبناءً على ما قدمناه، سوف تفتح هذه الدراسة آفاقاً جديدةً، أمام هذا التوجُّه الجديد في قراءة القرآن، وضرورة دراسة المفاهيم المشكلة لبنية القرآن من خلال التعامل مع مفرداته، كجزء من هذه البنية المتكاملة. إن مفهوم السَّداد ومع قلة وروده، يتبوأ موقعاً مهماً في المنظومة الأخلاقية، ويثير جملة من التساؤلات، للخروج من التخبط الذي تفرزه المنظومات الحداثية، والمتطرفة، وإنتاج نموذج سديد ينفتح بوعيه على قيم السلم لتسديد وجهة الإنسانية. ونظراً لأن هذا البحث، هو حلقة بحثية في دراسة المفهوم فحسب، فإننا ندعو إلى تعميق البحث في خصائص النموذج السَّديد، بهدف بناء نظرية السَّداد في المنظومة القرآنية، والتطلُّع إلى إعداد برامج تربوية، تهدف إلى إنتاج الخطاب السديد في جميع الدوائر المجتمعية لإغناء التجربة الإنسانية بالسلام والحكمة.

The Concept of *Sadād* (Setting Right) in the Qur'an

Jamilla Belaouda and Waleed Fekry Faris

Abstract

This study examines the concept of *sadād* (setting right) in the Qur'an, an important concept that plays a role in both building the thought and the character of the individual. The concept of *sadād*, moreover, plays an important role in guiding the notion of *istikhlāf* (the notion of humans being God's vicegerent on earth) towards *ʿibādiyyah* (servitude) and framing it within righteous speech and virtuous actions. The study links the concept of *sadād* with the concept of *ṣalāḥ* (righteousness or virtue), the latter being an outcome or product of the former. The study also investigates the broader concept of *sadād* (beyond the individual) which manifests in many places of the Qur'an. This broader concept may be referred to as "cosmic *sadād*" or "universal *sadād*." The study thus aims to understand the concept of *sadād* and its universal characteristics according to the Qur'an. The study also attempts to clarify the difference between the concept of *sadād* and the concept of *ṣawāb*, two Qur'anic concepts that are similar but actually carry distinct meanings. *Sadād* typically refers to the context of human endeavour (i.e., setting it right), while *ṣawāb* refers to righteous behavior. Lastly, the study investigates the role these concepts play in forming *istikhlāf*.

Keywords: *Sadād*, Qur'anic concept, *akhlāq*, ethics, moral system, Qur'anic ethics, context, *ṣalāḥ*, righteousness, virtue, *ṣawāb*, righteous behavior, *istikhlāf*, vicegerent.